الفكاهة في شعر حفني ناصف

حفني ناصف (١٨٥٥-١٩١٩م) واحد من أهم الشعراء الذين عاشوا بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، وإن لم يكن ما ناله من الشهرة مساوياً لما ناله معاصروه كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

ولعل لهذا الوضع أسباباً كثيرة نذكر منها :

- توزع اهتمامات حفني ناصف، فقد كان عالماً بحاثة ولم يكن الشعر أكبر همه ولا مبلغ علمه.
- أنه اشتغل بالتدريس وبالقضاء وبالشأن العام مما جار على وقت الإبداع الشعري عنده.
- أنه لم يكن يهتم بأشعاره، بل إنه لم يصدر ديواناً واحداً في حياته ولولا أن قيض الله تعالى لهذا الأمر ابنه عصام الدين فجمع تراثه وطبعه في ديوان لفقدنا كل أشعاره.
- أن وفاته يوم ٢٥ فبراير ١٩١٩ قبل أيام من اندلاع ثورة ١٩١٩ وما ترتب على تلك الثورة من أحداث سياسية أسهمت -ولو بصورة غير مباشرة- في الانصراف عمن توفوا في خضم تلك الثورة مثل حفني ناصف ومصطفى لطفي المنفلوطي الذي قال شوقي يرثيه :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعي

من مات في فزع القيامة لم جد قدماً تُشيّع أو حفاوة ساع

لقد ترك حفني ناصف ما يقرب من خمسة وعشرين كتاباً وبحثاً، وهذا نتاج علمي ضخم بالقياس إلى ما عُرف عنه من جهد في إعداد القضايا والأحكام التي أصدرها خلال مرحلة عمله بالقضاء، وبالقياس إلى ما عُرف عنه من اهتمام بالرياضة البدنية والرحلات والموسيقا وهذه مجالات لا يعرف لمعاصريه كشوقي وحافظ اهتمام بها.

ووصفه معاصروه بما يليق بمكانته، وبما يعكس شخصيته الفذة المتميزة فقال عنه طه حسين الذي تتلمذ على يديه في الجامعة المصرية في بدء نشاطها "كان ذكيي القلب، خصب الذهن، نافذ البصيرة، حاضر البديهة، سريع الخاطر، ذرب اللسان، وكان من أسمح الناس طبعاً وأسمجهم خلقاً، وأرجحهم حلماً، وأعذبهم روحاً، وأرقهم شمائل، وكان يلقاك فتأنس إلى محضره، ويغيب عنك فتشتاق إلى لقائه...." كما امتدحه العقاد وأحمد الأسكندري وغيرهما مما لامجال للتوسع فيه هنا.

ولكن الشئ الذي تفرد به حفني ناصف بين معاصريه هو ولعه الشديد بالدعاية والمزاح غير المبتذل. وله في هذا المجال "ما يكفي لتأليف كتاب" كما يقول الشاعر محمود غنيم في كتابه عن حفني ناصف.

فمن مداعباته الشعرية أنه كان ذات ليلة يسهر في أحد الأندية فجاء إليه رجل يعرفه ودفع إليه رقعة من الورق فيها بيتان من الشعر يستدر فيهما عطف حفني بك عليه وهما:

جـارت عـليّ الليـالي في تصرـفها وأغرقتنـي في لُـجٍّ مـن المحـن
فيـا عميـد القـوافي أنـت معتصـمي أَقِـلْ عِثـاري وأنقـذني مـن الـزمن

فكتب حفني ناصف على الورقة ارتجالاً وقدمها للرجل:

يكـاد شـعرك يُبكينـي ويُضـحكني ولم أزلْ سـاخراً مـن ظنـك الحَسَـنِ
فاقبـل عطـائي بـلا شـكرٍ ولا غضـبٍ فليس– والله –في جيبي سوى "شِلنِ"

فهو في هذين البيتين المرتجلين استخدم لفظاً أجنبياً وهو (الشلن) ويطلق في مصر على العملة المعدنية ذات القروش الخمسة ، لكن الكلمة بنفسها (شلن) وحدة عملة أوربية.

وفي مناسبة أخرى استخدم حفني ناصف مفردة أوربية هي كلمة (مرسي mercy) التي تعني شكراً باللغة الفرنسية وهي لفظة كانت وما تزال شائعة على ألسنة العوام في مصر، فقال حفني ناصف يحض على العمل الجاد، وعدم بخس الناس حقوقهم:

بربك هل ترى في الكسب عارا وكيف وفي التكسب طيب نفسِ؟
فـلا تكثـر بشـكرك لي، فخـير لـديَّ: دريهـمٌ مـن قـول " مِـرْسِي"!

ومن سرعة بديهته، قدرته على توظيف الألفاظ والأسماء الحديثة في أداء المعنى، كما رأينا في النموذجين السابقين.

وذات مرة كان في مصر مسؤولان كبيران في السفارة البريطانية اسم أحدهما (جِبس) واسم الآخر (جير)، والجبس والجير من مواد البناء التي يستخدمها البناؤون فقال حفني ناصف معرّضاً بهذين المسؤولين الكبيرين:

لِمصرَ بئس المصيرُ العيش فيها مريرُ
والقوم طينٌ، لهذا: قد ساد "جبسٌ وجيرُ" !!

ومما تميز به حفني ناصف أنه لم يورث أبناءه ثروة ولا أملاكاً، وهو القائل

أتقضي معي إن حان حيْني تجاربي وما خُلقت إلا بطول عَناء ؟
إذا ورَّث الجُهَّال أبناءَهم غنىً وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء !

ولكنه حرص كل الحرص على أن يغرس في أبنائه روح الاعتماد على النفس ليكونوا مثله عصاميين مجاهدين في الحياة، فقد أسمى أول ابن ولد له "عصام الدين" فلما مات طفلاً ورزقه الله غيره، سمى المولد الثاني "عصام الدين" إصراراً منه على غرس قيمة "العصامية" في نفوس أبنائه، وكان هذا يقتضيه أن يعاملهم كما يعامل تلاميذه معاملة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه فقد كان الإمام، وكذلك كان حفني ناصف، يقرب طلابه إليه حد تبادل المزاح والنكات والأحاديث والآراء في حدود الوقار المطلوب، ومقدمة طه حسين لديوانه تعرض لهذا الجانب بالتفصيل الرائع والتحليل الممتع.

وذات مرة كتب إلى ابنه مجد الدين من على ظهر باخرة وهو في طريقه إلى أوربا:

obeikandl.com

" عزيزي / مجد الدين

ولقد ذكرتك والرياح عواصفٌ والبحر يعلو بالسفين ويهبط

فكأنما هي أنت حين تسير في جور الطريق مهرولاً تتخبط

وذات مرة كان يركب القطار ومعه ابنه مجد الدين وعلى جدار القطار كتبت عبارة (إذا رمت النزول فاطلب من الكمساري توقيف القطار) فطلب حفني من ابنه أن يحول هذا الإعلان إلى بيت من الشعر فلم يستطع مجد الدين فقال حفني ناصف:

إذا رمت النزول –بُنيَّ– فاطلب من الكمساري توقيف القطار !!

ومن طرائف فكاهات حفني ناصف الشعرية أن الصحفي المسيحي سليم سركيس زار الحجاز في موسم الحج على أنه مسلم بهدف عمل تغطية صحفية، ولم تكن إجراءات التدقيق والمراجعة في تلك الحقبة –قبل تأسيس المملكة السعودية وتنظيمها– بالصورة الصارمة التي عليها الآن، فلما عاد ذلك الصحفي المسيحي وكان صديقاً لحفني ناصف كتب له مداعباً قصيدة فُقدت وبقي منها هذان البيتان

عليك سلام الله إن كنت مؤمناً وإن كنتَ زنديقاً سحبتُ كلامي

لقد كان سركيسٌ بمكة محرماً وطاف ببيتٍ في البقيع حرامِ... ي!!

و(حرامي = لص). فلو لم يضع الشاعر حرف الياء منفصلاً عن كلمة (حرامِ) لما حدثت هذه المفارقة الفكهة الذكية.

ورأى يوماً ما رقيباً (شاويشاً) تبدو عليه أمارات السعادة والانبساط حتى ظن الناس أنه سكران من شدة ما بدا من سروره. فقال حفني ناصف إنه لم يسكر ولم يشرب وإنما هو رجل جائعٌ أوقعه الحظ في مأدبة (عدس) فنال منها حتى حدث له ما حدث من هذا الهياج والسرور:

وقالوا: احتسى هذا "الشويش" مدامةً ... ألم تره للبِشْر يُبدي وللأنس ؟

وما ذاق طعم الخمر يوماً، وإنما ... به نشوةٌ من كثرة الأكل للعدس

وفي أثناء عمله بالتدريس نقلوه مرة إلى مدرسة من مدارس الصم والعميان فتأذى من ذلك أذىً شديداً، وطلب نقله منها غير مرة، ولكن طلبه لم يجد لدى المسؤولين آذاناً صاغية فكتب أبياتاً يقول فيها إن الحكومة الإنجليزية أخطأت حين نفت محمود سامي البارودي وأحمد عرابي إلى جزيرة سيلان وحين نفت من سماه (ابن موسى العقاد) إلى السودان تأديباً وتنكيلاً، ولو أنها أرادت بهم نكالاً أعظم وعذاباً أشد لكلفتهم بالعمل في مدارس المعوقين. فقال:

غلط الناس في عرابي وسامي ... حيث أقصوهما إلى سيلانِ

وابن موسى العقاد حيث نفوه ... مع باقي الثوار للسودانِ

لم يريدوا بهم عذاباً، فهلاَّ ... أرسلوهم للخرس والعميانِ؟!!

ويستعير حفني ناصف تعبيراً عامياً مفعماً بروح السخرية المصرية، وهو تعبير (استعنا على الشقا بالله) الذي لا تسمعه من أحد إلا مصحوباً بابتسامة ساخرة أو ضحكة مكتومة، أو نبرة لا تشير إلى استعانة حقيقية، بقدر ما تؤكد نفورها من

الشقاء الملازم، وهو يستعير هذا التعبير الشعبي الساخر تعليقاً على رفض طلبه النقل من مدرسة الصم والعميان فيقول:

قيل إن السقام فيها وإن كا ... ن شقاءٌ يُفضي لعزٍّ وجاهِ
قد رضينا طول الإقامة فيها ... (واستعنا على الشقا بالله)!!

وحدث أن تلقى حفني ناصف هدية من بعض أصدقائه، وكانت عبارة عن أسماك وطيور فكتب يشكره ويصف هذه الوجبة الدسمة مستعملاً لبعض الألفاظ العامية مثل (الحنك=الفم، الدكك= جمع دكة وهي المقعد الخشب المعروف، البُلُك بضم الباءواللام-= صف من الجنود، السكك= الطرق جمع سكة بكسر السين) فقال:

ورد الكتابُ، وجاءنا السمكُ ... فليسلم الصيادُ والشَّبكُ
وأقام فيما بين أَضْلُعِنا ... فبطوننا من أجله بَركُ
والطير لما جاءنا بُسطَتْ ... في جوفنا لقدومه الدككُ
وامتدت الأيدي مسلِّمةً ... واصطكت الأضراس والحنكُ
خفض الجناح مؤمِّلاً فَرَجاً ... مذ سُدِّدت في وجهه السِّككُ
ولقد تورَّكنا عليه، فلم ... يسلم له من بيننا وَرِكُ
دارت به الأسنانُ مسرعةً ... واصطف فيما حوله بُلُكُ

وكما انغمس حفني ناصف في كثير من غرائب الأمور كولعه بالموسيقى والرياضة البدنية ولاسيما السباحة، وما عرف عنه من حبه للبحث العلمي

والترحال في مشارق الأرض ومغاربهان فقد انغمس كذلك في فنون الشعر القديم منها والجديد، فقد ضم ديوانه فناً كاد ينقرض إن لم يكن انقرض الآن بالفعل وهو فن (التطريز) أي نثر اسم من الأسماء بحيث يكون كل حرف منه هو أول حرف من أول كلمة في البيت الشعري إلى أن تنتهي المقطوعة أو القصيدة بانتهاء حروف الاسم. كما قال متغزلاً ومستعملاً تطريز اسم امرأة اسمها (هانم):

ه هم يا فؤاد فما عليك جُناح كم في الصبابة والهيام نجاح
ا أو ما دعتْك إلى الصبابة غادةٌ هيفاء مائسة القوام رَدَاحُ
ن نجلاءُ ألحاظٍ، وفي وجناتها والثغرِ وردٌ يانعٌ وأَقَاحُ
م من لم ير التعذيبَ فيها مُرْبِحاً وهدىً، فليس له هدىً ورباحُ

كما نرى في ديوانه فناً آخر من فنون التجديد الشكلي الذي عرفته القصيدة العربية وهو التشطير، في نموذج من شعره الفكاهي قال بمناسبة إصدار بعض أدباء الشام جريدة أسماها (الجِنان) – جمع جنة- وكتب عليها هذين البيتين لترويجها

إليك صحيفةً نَشَرَتْ حديثاً وأغنتْ بالسماع عن العِيَانِ
كفردوسٍ حوى ثَمَراً شهيَّاً لذاك دعوتها باسم (الجِنانِ)

وطلب أحد جلساء حفني ناصف أن يقوم بتشطير هذين البيتين على أن يتحول بمعناهما من المدح إلى الذم فقال :

(إليك صحيفةً نَشَرَتْ حديثاً) غنياً في (الخراف) عن البيانِ
أبانت عن مساوئ منشئيها (وأغنتْ بالسماع عن العِيَانِ)

(كفـردوسٍ حـوى ثَمَـراً شـهيَّاً) وأكثـــره يُمِـــرُّ عـــلى اللســـانِ

وتُـورث عقـل قارئهـا اخـتلالاً (لـذاك دعوتهـا باسـم (الجِنـانِ))

وواضح أنه هنا تلاعب بمدلولات لفظي الخراف والجنان العامية فاستخدم الأولى في إشارة إلى (التخريف) والثانية في إشارة إلى (الجنون) كما تستعمل في اللهجة المصرية العامية!!

وحدث في سنة١٩١٤أن كان حفني ناصف يصطاف في مصيف (رأس البر) وعلى (اللسان)وهو ملتقى النيل بالبحر المتوسط لقيه مصادفة حسين رشدي باشا رئيس وزراء مصر آنذاك فارتجل شاعرنا هذين البيتين :

افـــترَّ " رأس الـــبر " لمـــا زاره رأس الـوزارة ، فـازدهى الرأسـانِ

والنيـل والملـح الأجـاج تسـابقا عنـــد الزيـــارة فـــالتقى البحـــرانِ

وروى عنه معاصروه كثيرا من الطُّرف التي تدل على ظرفه ، وسرعة بديهته فمن ذلك أن حلاّقه طلب منه مرة أن يختار له آية قرآنية يكتبها له خطاط ليزين بها محل حلاقته (الصالون) فقال له بتلقائيته المعهودة : " بسيطة .. قل له يكتب [نحن نقص] " .

وكانت في حي الأزهر مكتبة تسمى " المكتبة العلوية " صاحبها رجل متأدب من أصدقاء حفني ناصف اسمه الشيخ علي نحلة ، وذات مرة شكا إليه صاحب المكتبة أن طلاب الأزهر يأخذون منه " الملازم " التي يطبعها لهم ويتكاسلون في دفع

أشانها المقسّطة ، فدعا حفني خطاطا ، وطلب منه أن يكتب لوحة كبيرة توضع في صدر المكتبة عليها هذا البيت الذي ارتجله ساعتها :

خذ (المَلازم) وادفع ، لستُ أترككا هل تشتري العلم من أصحابه (شَكَكا؟)

ومن يومها استقامت للرجل تجارته بعد هذا الإنذار اللطيف . !!

obeikandl.com